النثر الجزائري القديم (مقاربة في المعنى والمبنى)

د. شميسة غربي
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة سيدي بلعباس - الجزائر

لم ينسلخ الأدب العربي القديم، في الجزائر، عن التأليف التراثي، بل راح ينهل من مشاربه المتنوعة، ويشق الطريق، برويّة واتزان، في رحاب الأدب: شعره ونثره.

وكما مارس الجزائريون الشعر، وكانت لهم فيه القدم الثابثة1، مارسوا النثر- كذلك - بمختلف تجلياته، وطعموه بنفحات مميزة لا تخلو من صدق التجربة، ولا تبعد عن البنى الأساسية المكونة لكل عمل فني.

ففي استعراض موجز لنوعيات نثرية من الأدب في الجزائر العثمانية، نسجل بعض العناوين البارزة :

- "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب"، للشيخ: أحمد بن محمد المقري التلمساني، وهو يقع في عشرة أجزاء.

يقول المقري في خطبة الكتاب: «.. وأشكره - جلّ وعلا - على أن علمنا بالقلم ما لم نعلم، ونبّه، بآثاره الدالة، على اقتداره إلى سلوك الطريق الأقوم، الواضح المعْلم، وأرشد من أشرق فكره وأضا، إلى التفويض لأحكام القضا، ومن ذا يردّ ما أمضى أو ينقض ما أبرم، والتسليم على كل حال أسلم.. »2.

- "أزهار الرياض في أخبار عياض، وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتياض"، للمقري أيضا.

- "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"، لمحمد أبي رأس الجزائري. يقول، مشيرا إلى إحدى رحلاته:«.. ورحلت إلى مدينة فاس، محل العلم والإيناس، والتقريب والتبعيد لأناس، وهي قبة الإسلام والسلم والاستلام، المقام الأعلى والمثابة الفضلى، فهي أم قرى المغرب الوافرة، وخزائن المزائر والشهرة الساحرة..»3.

- "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، لعبد الرزاق بن حمادوش الجزائري. ومن نماذج نثره في هذا المؤلف: «الحمد لله، طحى بي ضيق الأسباب، وهوى الاكتساب، إلى أن خطرت من شدة الإياس إلى بلاد الملك مكناس، أخوض الغمار، لأجتني الثمار، وأقتحم الأخطار، لكي أدرك الأوطار, وكنت لقفت من أفواه العلماء، ووصايا الحكماء، أن الخطر غرور، وأن المسافر مبرور..»4.

هذه، كما أسلفت، بعض العناوين النثرية في التراث الأدبي بالجزائر العثمانية، ويبقى الرصيد وافرا من نماذج أخرى، قد لا يكون المقام مناسبا لسردها كلها، وإنّما مهدت بها للولوج إلى قراءة نموذجين:

- أولاهما: اليتيمة البونية: "إعلام الأحبار بغرائب الوقائع والأخبار"، لأحمد البوني5،

- ثانيهما: يستحضر مقتطفات من "أزهار الرياض في أخبار عياض، وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتياض" للشيخ أحمد المقري.

لعل أول ما يثير الانتباه في: "إعلام الأحبار بغرائب الوقائع والأخبار"، لأحمد البوني، اعتبار هذا الأثر الأدبي (مقامة)6، والحقيقة أنّني أجدها قطعة أدبية

"يتيمة" في عائلة الأنواع المعروفة، وربما يكون من المنطق إعادة النظر في تصنيفها، وتحديد أجناسيتها الأدبية.

وفي قراءة أولية، يبدو أن هذا الأثر الأدبي قد بُني على فعل الشكوى بغية رفع البلوى ... تلك الشكوى التي وجهها الشيخ أحمد البوني إلى صديقه: مصطفى العنابي، أحد علماء الجزائر، خلال القرن الثاني عشر الهجري .

أما مضمون الشكوى، فتمحور حول وشاية الخصوم، ونجاحهم في مسعاهم، مما جعل الحاكم يسئ إلى أحمد البوني، ويسيء إلى صديق للبوني، بعزله من منصب الفتوى. من ثم كانت الشكوى مزدوجة، مؤسسة - في حقيقتها - على سلطة (فعل الوساطات)، بغض النظر عن تعقّب الظالم، وإنصاف المظلوم ..

يفتتح الشيخ أحمد البوني قطعته الأدبية بالحمدلة، واعتبار النوازل والنوائب مغفرة للذنوب، ووسام شرف للأشراف، ويسترسل بالصلاة والسلام على سيد الخلق، الذي لم ينج (صلى الله عليه وسلم)، هو الآخر، من الأذى والمحن: «الحمد لله الذي جعل المصائب وسائل لمغفرة الذنوب، والنوائب فضائل لذوي الأقدار والخطوب، وسلط - سبحانه وتعالى - على الأشراف أربابَ الزورِوالفجور والإسراف (...) والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد (...) الصابر على الأذى والمحن.. 7.»

بعد هذا الاستهلال، تتحرك المتتاليات نحو مقولة التهيئة الذهنية لتبسيط غرضية النص: «.. أيها العلماء الفضلا، النبلاء الكملا، فرغوا أذهانكم، وألقوا آذانكم، وتأملوا ما يلقى إليكم من الخبر الغريب، وما يرسل الله - تعالى - على كل عاقل أريب..» 8.

يتضح أن الخطاب - في البداية - موجّه إلى فئة معينة، تستقيم معها التلبية السريعة لسماع الشكوى، وربما، لرفع الضرر فيما بعد.. والمتأمل في بنية هذه التهيئة الذهنية، يكشف نظام قصر الفواصل داخل المتتاليات، ويكشف هذا التلاحق السريع، على مستوى البنية السطحية، في إطار من العلاقات بين الأجزاء المكونة للتعبير، وهو ما تجلّيه الترسيمة الآتية :

	العلماء	الفضلا	
أيها	النبلاء	الكملا	أحادية التوزيع (فواصل قصيرة)
	تناسق	توازن	

وتتوزع بقية الفواصل، في مقولة التهيئة الذهنية، على الشكلين الآتيين :

فرغوا	أذهانكم	
ألقوا	آذانكم	استمرارية التوزيع مع الفواصل القصيرة
توازن	تناسق	

و	تأملوا	ما	يلقى	إليكم	من الخبر	الغريب
وما	يرسل	الله	تعالى	على كل	عاقل	أريب
تقارب	تقارب	نتوء	نتوء	تناسق	تقارب	توازن

انحرافية التوزيع إلى فواصل متوسطة

ونتتبع بنية الفواصل في هذه القطعة الأدبية، فنخرج من مقولة التهيئة الذهنية إلى مقولة جديدة؛ هي مقولة الإفراغ الانفعالي، المنبثق عن الشعور بالظلم إثر مسعى وشاية الخصوم: « بينما نحن في عيش ظلّه وريف، وفي أهنئ لذة بقراءة العلم الشريف، وفي صفاء من الأكدار، وهناء من صروف الأقدار، إذ سعى في تشتيت أحوالنا وقلوبنا، وهتك أستارنا وعيوبنا، من لا يخاف الله ولا يتقيه، فرمى كل صالح وفقيه، بما هو لاقيه، واغتر في ذلك بقوم يظنون أنهم أفاضل، وهم - والله - أوباش أراذل، من كل مغتاب ونمام، أو مرتاب تمتام، ونسب لبعضنا من الكبائر والفضائح، ما تصم له الآذان، وتجمد له القرائح...»9.

بتصفح مقولة الإفراغ الانفعالي، تبدو هيمنة البنية الوصفية عبر المتتاليات المكونة لهذه المقولة: حياة وديعة، وانشغال بالمعرفة سرعان ما ينقلبان، بسبب الوشاة، إلى تذمر، وغم، وكرب يشتد بصاحبه، حتى يخرج به إلى طور الهجوم والتراشق بالشتائم: أوباش أراذل/ مغتاب نمام/ مرتاب تمتام.

إنها ثلاث ثنائيات متوازية، متساوقة مع الحمولة المعنوية لفعل الهجوم، الذي يتصاعد، محققا سلطة الإفراغ الانفعالي في متتاليات وصفية متلاحقة أخرى. يقول الناص: «.. فكلّ شر منهم باد، في الحاضر والباد، سنّوا سنن الزور والافتراء (...) وشرعوا شرعة البهتان، والسعي بالناس للسلطان، وأدخلوا في فسادهم ذلك، من لم يشعر بفعلهم؛ ليوقعوه في المهالك (...) فُسقهم فاش بين الأنام، مد الليالي والأيام..»10.

إنّ هذه البنية الوصفية، ستؤلف - فيما بعد - ترابطا منطقيا في إطار الشكل العام، حيث تتدرج في نموها حتى تخلق مقولة جديدة مبنية على فعل «الدعاء»؛

لكسر شوكة الخصوم: «فضراعة إليك - اللّهمّ - في تخييب آمالهم، وإفساد أعمالهم، وتعجيل خرابهم، وتفريق أحزابهم، وقطع آثارهم، وخراب ديارهم، ونفيهم من البلاد.. »11.

وكما يبدو، فقد جاء الدعاء غنيا بدلالاته وإيحاءاته، غنيا بتوازناته الصوتية المتولدة عن بنية نظام الفواصل، حيث نستشعر تراجعا عن الفواصل المتوسطة، إلى الفواصل القصيرة، وكأن الموقف الانفعالي يفرض التلاحق السريع؛ لإيجاد نوع من التناسق الداخلي، على مستوى البنية العميقة المشكلة لفعل الدعاء:

- تخييب آمالهم/ إفساد أعمالهم
- تعجيل خرابهم/ تفريق أحزابهم
- قطع آثارهم/ خراب ديارهم

وكأن هذا القصر في بناء الفواصل وتلاحقها؛ إنما هو التوق إلى الاستجابة الربانية العاجلة لنزول العقاب، وتحقيق العدالة الإلهية، التي لا يمنع انتظارها من الاستنجاد بـ "مصطفى العنابي"؛ لرفع الأذى عن الرجلين "أحمد البوني، وصديقه"، وتعديل أحوالهما: «يقضي حوائج الراجين (...) ينصر المظلومين على الظالمين (...) علومه ربانية، وأسراره رحمانية (...) لو رفعتم إليه هذه الحاجة، لقضاها لكم بلا توقف ولا لجاجة..»12.

وعلى هذا المنوال، سار الشيخ "أحمد البوني"، في صوغ قطعته الأدبية، التي سميتها بـ (اليتيمة البونية)، وقد طعمها بأبيات شعرية مثل:

وأنت وكيلي - يا قوي - عليهمُ ⋆ وحسبِيَ إن كان القوي موكلا 13

ومثل :

لا عيب فيه، سوى أنّ النزيل به ⋆ يسلو عن الأهل والأوطان والخدم 14

وختمها بالابتهال والتضرع إلى الله؛ لحصول التوفيق الجمعي، ورفع المعايب والمثالب، والتجاوز عن الذنوب، مع ترجي قبول هذا الأثر الكتابي، وإن كان - في نظر منشئه - في أسفل الدرجات: «.. فإنّ بضاعة صاحبها في العلم مسجاة، وإنشاءاته منحطة في أسفل الدركات»15

إنّ المساءلة التي نخرج بها، بعد هذه المقاربة التحليلية لليتيمة البونية، هي: هل هذا الأثر الأدبي "مقامة" بالفعل، أم هو أحد فنون الخبر وكفى؟، أم هو مجرد خطاب أدبي، صادر عن ملكة جمالية، لها ما يبرّرها في عصرها؟ خاصة، إذا اقتنعنا بأن «لغة الكاتب خاضعة لما هو سائد في عصره، من طرائق تعبيرية درج عليها مجتمعه»16.

مهما افترضنا، فإنّنا لن نتعدى القول بأن الناص انطلق من قيم فنية تقليدية، كاعتماد السجع، والاجتهاد في الانتقاء اللفظي، واقتناص العبارات المشحونة بالفعل البلاغي، من مثل قوله: «.. لوائح الصدق ظاهرة على صفحات أخبارك، وروائح الرجاء والظفر؛ استنشقناها من آثارك، كأنك بشير يعقوب، أو كاشف الضر عن أيوب..»17.

بهذه المقاربة، تكون «اليتيمة البونية» قد وضعت داخل نظام لغوي خاص، من شأنه أن يكشف عن مقدار الأدبية فيه، وأن يرجئ مسألة تصنيفه إلى حين.. وستبقى هذه « اليتيمة» أحد نماذج النثر الأدبي في الجزائر العثمانية، القابلة لتعدّد القراءات، وتوالد الدلالات.

أنتقل إلى المقاربة الثانية، وهي لأحد الأنماط النثرية في الإبداع الجزائري القديم، تجلوها أخبار "القاضي عياض" في كتابات "المقري".

لا شك أن الحديث عن كتاب "أزهار الرياض" يومض في الذهن ذكرى تراثية راسخة.. ذكرى رجلٍ من رجالات القرن الحادي عشر للهجرة، جال جولته في فضاءات علمية وأدبية عديدة: فقد كتب في الأدب، والرحلة، والعقيدة، والسيرة، وضمّنَ تآليفه مادّة إخبارية غزيرة؛ تشهد له بالموسوعية وبالنفس الطويل، في ملاحقة "الحدث"، ومعالجة أطرافه؛ بتدويره في حلقة استطرادية؛ تضجُّ بالأشياء والعلاقات، والأفعال والأزمنة والأمكنة.. إنّه يرسم آفاق تواصل كوني، في تمظهرٍ خطّي منتظم، لا يعرف الكلل، ولا يعروه الملل، ولا يجحده اليراع..

انتقى المقري ما شاء من الأخبار.. فتقصاها، ولوّنها بأسلوبه الخاصّ، وساقها على مئات الصفحات، ثمّ راح يهمس، من خلال المكتوب، بلواعج نفسه، وخبايا فكره، فازدحمت الصورة المعروضة بألوان شتّى من المتحركات، تأخُذ منها ما تشتهي، وتزهد في ما لا تشتهي..

آثرتُ الوقوف، في هذه المقاربة؛ على نُتفٍ من مؤلفه: "أزهار الرياض، في أخبار القاضي عياض، وما يناسبُها ممّا يحصل به ارتياح وارتياض"، وهو مصنف جليل، ألّفه المقري في مدينة "فاس"، في ما بين (1013هـ و1027هـ)، تلبية لرغبة التلمسانيين، في التعريف بالقاضي عياض، المتوَفّى سنة 544هـ، بمراكش.

انطلق المقري في لملمة أخبار القاضي الشهير، فكان العرض، ومعه أصناف من المحكيات، يلج القارئ، من خلالها، عوالم شتّ؛ تمثّل، في عمقها، تلاحم الثقافة المغربية الأندلسية، وإسهاماتها في تشكيل لبِنات التراث العربي؛ ضمن مُنجز عامّ، يستدعي التأمّل والتبصر في فاعليته، ودلائليته وأبعاده، ثمّ في تضافر طرائق

صوغه، وهو ما يحدّد ملمحاً فنياً؛ له خصوصياته في الفعل الكتابي، الذي تأسّس عليه المتن.

لعلّ ما يشدّ الانتباه، تلك العناوين الإخبارية الطويلة، التي شكّلت عتبات مسجوعة، أوْمأتْ إلى ما سيتمأسس عليه المتن؛ على امتداد رقعة ثمانية عناوين، حمولتها أريجٌ يعبق بنفحات الورد والأقحوان، والآس والشقيق والنيلوفر، وأمّا دلالاتها، فإطراء وتكريم، وابتهاج وتمْجيد لأحد أعلام السلف؛ "عياض اليحسبي السبتي". وفيما يلي: سرد لهذه العناوين المحمّلة بالخبر، قبل الشروع في سرد "الخبر"!!

- روضة الورد؛ في أولية هذا العالم الفرد.
- روضة الأقحوان؛ في ذكر حالهِ في المنشأ والعنفوان.
- روضة البهار؛ في ذكر جملة من شيوخه، الذي فضلُهم أظهرُ من شمس النهار.
- روضة المنثور؛ في بعض ما لَهُ من منظوم ومنثور.
- روضة النسرين؛ في تصانيفه العديمة النظير والقرين.
- روضة الآس؛ في وفاته، وما قابله به الدهر، الذي ليس لجرحه من آس.
- روضة الشقيق؛ في جملٍ من فوائده، ولُمعٍ من فرائده؛ المنظومة نظم الدّر والعقيق.
- روضة النيلوفر؛ في ثناء الناس عليه، وذكر بعض مناقبه، التي هي أعطر من المسك الأذفر.

بِتأمّلِ "الخبر" في هذه العناوين، يستدرج المؤلفُ القارئ إلى تمثُّل خمس مقولات؛ شكّلت عصب المتن؛ حيث لخّصَتهُ من ناحية، وإلى تمثّلِ علّة التكرار لكلمة: "روضة"، من ناحية أخرى.

التمثل الأول:

تشكّلت مقولات التمثّل الأول من (مقولة البدء): النشأة، المحيط، المقام (المكان)، الرحيل. ومنه انطلق (المقري) بالخبر، من "الأصلي"، وتدرّج به إلى "الفرعي"، وما بين الأصلي والفرعي، تراكمت أفعال، وعلاقات، ووضعيات، حقّقت - في مجملها - تصاعُداً حكائياً داخل منظومة ثقافية؛ هي أسيرة عصرها دون منازع.

لقد احتلّت مقولة البدء: جزآن مكثفان؛ بلغ مجموع صفحاتهما 728 صفحة، كرّسها المؤلف لبسط أشتات من الأخبار، تُبرّرُها شرعية السرد، حين يستأنس صاحبه بالخبر والعيان، أو قلْ: بالضامر والظاهر؛ فجاء التوزيع الإخباري:

- مستقطباً للجغرافيا: مدينة سبتة، مدينة فاس، غرناطة.

- مستقطباً لأصحاب المجالس السلطانية: أبو عنان المريني، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن الأحمر.

- مستقطباً لمتفرقات في التراجم الأدبية: الشريف أبو العباس، لسان الدين بن الخطيب، مع مراجعات أدبية من الشعر والنثر، وتخريجات تعضيدية مجْلاهَا: لوَاعج المؤلف، وتعقيباته.

يقول المقري، بعد مقدمة واقعة في اثنتين وعشرين صفحة، تحت عنوان: "روضة الورد في أولية هذا الإمام الفرد": «أقول، وعلى الله أعتمد، ومن بحر كرمه أستمد: هذه ترجمة، نذكر فيها أصله ومحتدَّه، وأوليته ومولده. قال الشيخ الإمام، الرحال، أبو عبد الله محمد بن جابر الوادي آش، الملقب بشمس الدّين - رحمه الله، ورضي عنه-: هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض (...) اليحصبي السبتي»18..

ثم يتعمّق المقري، فيتتبّع نسب القاضي عياض عند ابن الأبار، وابن خاتمة، وابن الملجوم، وغيرهم..، ثم يعلن: «.. وكفى بهؤلاء حجة (...)، والله - تعالى - أعلم»19.

ويشرح المقري نسبه عياض اليحصبي، السبتي، فيُرْجعُ النسبة الأولى إلى: «.. يحصب: من حِمْير، وهو يحصب بن مدرك، حسبما هو مذكور في كتب الأنساب»20، كما يرجع الثانية؛ أي: «.. السبتي: نسبة إلى سبتة: مدينة بساحل بحر الزقاق، مشهورة، واختلف في سبب تسميتها بذلك»21.

بعدها يسترسل في الحديث عن هذه المدينة، فيعرض ما جاء في شأنها - نثراً وشعراً - ضمن صفحات عديدة، تبتعد عن الخبر الرئيس إلى تخريجات، تصل حدّ إثارة مسألة "الدواة"، التي كان يستعملها السلطان "أبو عنان المريني". يقول المقري: «.. وقد رأيت، في هذه الأيام، "دواة" في غاية ما يكون من الإتقان والصنعة والتهذيب (...)، وهي عند بعض أصحابنا الكتاب، بالحضرة الفاسية (...) وأظنّها هي الدواة التي كانت لـ "أبي عنان"، والله أعلم»22.

ولا ينهي حديثه عن "سبتة" إلا بسقوطها، الذي يسوقه إلى ذكر سقوط المدن الأندلسية، مثل: قرطبة، ومرسية، وطليطلة، وبلنسية وغيرها..، ثم يستحضر باقة من الأشعار الموثقة لخبر السقوط، والناعية لهذه الربوع، ويعززها بقطع نثرية؛ تحكي اختلال أمر الجزيرة؛ بسبب الفتن بين ملوكها، وبعض ما استدعاه مثل هذا الوضع من كتابات تستنهض الهمم؛ لصدّ النصارى، وتطهير الأرض من الصليب؛ ليركن، في الأخير، إلى تراجم عدد من الأعلام، ممن حملوا لواء التميز، على العديد من المستويات، كالفقيه: عمر المالكي، وكابن الخطيب، وابن زمرك، وغيرهم كثير،

دون أن يغفل التعقيبات، التي تعوّد عليها، عند سرده لتراجم الأعلام. ولقد فتحت مقولة "البدء" أفق انتظار عائم في الأريحية، التي أسبغها المؤلف على بطل متْنه.

التمثل الثاني:

يخلص القارئ إلى التمثّل الثاني، والمشخصن في (علّة التكرار) لمفردة "الروضة"، التي بلغت ثماني مرّاتٍ. وكأنّ بالكاتب قد أراد الترميز بهذا التكرار، إلى ترسيخ فكرة أولية، لدى المتلقي، ألا وهي: سِحر الصيت على امتداد حياة القاضي عياض.

فلفظ "الروضة"يستدعي استحضار سلاسل من المشاهد الزاهية؛ مشاهد تتراقص على أوتار الطبيعة الخصبة؛ تلك الطبيعة المعطاء، التي يتمثّلها الذهن على هذا النحو:

- أزهار؛ تتضوع طيبا..
- اخضرار؛ يُبهج العيون..
- ظلال مترامية؛ تريح النفوس..
- خمائل متناسقة؛ تلطّف الأجواء، وتزركش الأرجاء..
- نسيم عليل؛ يداعب الأوراق، فينبعث الحفيف، وكأنّه تراتيل العيد..
- مياه رقراقة؛ تنساب في مجاري مهندسة، وكأنّها اللجين المذاب..
- ثمار دانية؛ تنعش النفوس، وتغذي العروق..
- عصافير على الأفنان؛ تشدو أجمل الألحان..

وبعبارة موجزة: لفظ "الروضة" يستدعي تمثل حقله المعجمي (الدلالي): الماء، والنبات، والنضارة.. فهل شكل القاضي عياض ماء، ونباتاً، ونضارة ؟. هل كانت

في حياته صورة لهذا الفيض الطبيعي، حتى وسمت كل حركة من حركاته؛ وكل ذرة في محيطه، بأنّها نفحة خير عميم ؟.

ربما توسّل المقري بهذا التكرار، إلى تجسيد الخبر بكل جزئياته، كما هي الروضة: مجسدة بمكوناتها الغنية، إنّها عناوين مثقلة بالعبق، مضمخة، منذ البدء، بعطر سيرة الرجل، حتى، لكأنها إعفاء من الكاتب.. يعفي به الباحث من أي محاولة للخوض في تتبّع أخبار "عياض"، بطريقة أو بأخرى..

يقول المقري، في هذا السياق: «ثم وقع العزم والتصميم (...) ودخلت من هذا الباب بعد أن قرعت، وأخذت في هذا الغرض وشرعت، وشربت من ماء التصنيف وكرعت، وبذرت في أرض التأليف وزرعت، هذا مع أني ما مهرت ولا برعت، ولا أتقنت لصناعة التأليف عملاً:

لكن قدرة مثلي غير خافية * والنمل يُعذر في القدر الذي حملا

وكثيرا ما خرجت من الشيء إلى ما يناسبه أو يدانيه (...) وسميته بأزهار الرياض في أخبار عياض، وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتياض؛ تسمية وافقت - إن شاء الله - معناه، وناسبت منزله ومغناه (...) فدونك أيّها الناظر روضات أزهار، وجنات تجري من تحتها الأنهار، أبوابها ثمانية (...) سما إلى محاسنها من تعلق من التاريخ بأهداب، لم أسبق إلى مثلها فيما رأيت (...)، والإنسان مغرم ببَنِيّات أفكاره، وإن قوبل ما صدر منه بإنكاره»23.

إنّه "التعليل " لما سينقله الكاتب من أخبارٍ عن القاضي عياض، مهّد له بانعقاد النية، فالاستعداد المعرفي، وتبيان منهج الأداء، والغوص في أسباب العنونة، التي تعتبر - في حدّ ذاتها - نصّا مليئاً بالدلالات المفتوحة على عديد التأويلات.. وقد اعتمد في كل ذلك؛ صوغاً فنيّا مهَندَساً على ملمح جمالي، ابتناه على:

- تنضيد الفواصل القصيرة، باعتماد أفعال ماضية من قبيل: دخلت، أخذت، قرعت، شرعت، كرعت، شربت، زرعتُ. وكلّها تدور حول حركية المبادرة ونوعيتها، ثم العزم على تطبيقها في سرد تفصيلي لسيرة القاضي "عياض".

- توظيف نمذجة المساحيق البلاغية: حيث جرت الممارسة اللغوية في هذا المقتطف مجرى الاحتفالية بالبيان، وبنسج الاستعارة الأدبية؛ الآخذة بتلابيب الخيال، على المنوال، وبسبل الانزياح عن المعيار: (شربت من ماء التصنيف/ بذرت في أرض التأليف..). ففي الفاصلتين دلالة الباع الطويل في تعاطي الفعل الكتابي؛ فالماء والبذر، في دلالتهما البعيدة، عنوان انتظار غلال مستقبلية، تُؤتي أكلها متى أتقن الباذر فعله، بتهيئة الأرض، مع ما في ذلك من الجهد الشاق، الذي ستطويه - فيما بعد - أريحية الحصاد المنشود.

من هذا المنظور، يكون القارئ أمام صورة جميلة، عاكسة لجدية الأخذ بالأسباب: تكوين مسبق يعقبه: «..فدونك - أيها الناظر- روضات أزهار،..». فالعبارة تكشف عن الاعتزاز الواضح بما حقّقه البذر، أو قُلْ: بما حقّقه قلم "المقري" على صفحات أزهار الرياض، في إطار نسق كتابي يتقصىّ"الخبر"، ويلبسه فعلاً حركياً رافلاً في حلة مزركشة، تبهج العين، وتسمو بالخاطر (ماء، شرب، أرض، بذر، روضات، أزهار..). إنّه - ولا شك - الملمس الأرقّ في استلهام المعنى، الذي يقدمه "الخبر"؛ فيشكّل منه لُحمة، من الصعب تجاهلها.

الإحالات:

[1]- أحمد بن عمار الجزائري، سـيدي بن علي، أحمد المقري، وقبلهم: بكر بن حماد التاهرتي، الحسن القلعي، وغيرهم..

[2]- أحمد المقري: نفح الطيب من غصـــن الأندلس الرطيب، دار الكتاب العلمية، بيروت، 1955، 1: 5، تنظر: المقدمة.

[3]- محمد أبو رأس الجزائري: فتح الإله ومنته، المؤســسـة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص: 101. .

[4]- عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري: لســان المقال، المؤســسـة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983، ص: 71. .

[5]- أحمد البوني: من علماء "بونة"، وصلحائها، ذكره صاحب: تعريف الخلف برجال السلف: أبو القاسـم محمد الحفناوي، الجزء الثاني، انطلاقا من الصـفحة: 376 إلى غاية الصـفحة: 388، موفم للنشر، الجزائر، 1991، وذكره: ابن حمادوش في رحلته المسماة: لسان المقال في النبأ عن النســب والحســب والحال، وتحدث عن كتاب البوني في الألغاز، ومداولة العلماء فيه، ومن الألغاز التي عرضها، قول أحمد البوني:

ألا أيها الغادي على ظهر أجود ⋆ يشق الفيافي فدفدا بعد فدفد
تحمل - رعاك الله - مني تحية ⋆ تحيي بها أهل المجالس في غد
وقل لهمُ: ما سبعة خلقوا معا، ⋆ وما سبعة في ثوب خز مورد
حواجبهم سبعون في وجه واحد ⋆ وأعينهم تسعون في خلق هدهد
أبوهم له حرفان من إسم جعفر ⋆ وحرفان من إسمي علي وأحمد

يقول ابن حمادوش: « فتداولناه بيننا حتى بلغ كلّ عالم وأديب في البلد (...) ولم نجد علما عند أحد به» الرحلة: ص: 130.

ولد أحمد البوني بعنابة ســنة 1063، وتوفي بها ســنة 1139، وله تآليف عديدة، نذكر منها:

- رحلة الروضة الشهية في الرحلة المجازية.
- نظم عقيدة السنوسي السادسة.
- نظم السيرة المحمدية.
- نظم أخلاق الصوفية كالتي حواها كتاب « تنبيه المغترين » للشعراني.

- تنوير الحجا بأسرار الحجا (جمع فيه أزيد من مائة لغز، جارى به شيخه سيدي بركات بن باديس القسنطيني).

[6]- مجلة الثقافة: وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، العدد: 58، السنة العاشرة، 1980، ص: 36.

[7]- المرجع نفسه، ص: 38.

[8]- المرجع نفسه، ص: 38.

[9]- المرجع نفسه، ص: 39.

[10]- المرجع نفسه، ص: 39.

[11]- المرجع نفسه، صص: 39، 40.

[12]- المرجع نفسه، ص: 41.

[13]- المرجع نفسه، ص: 40.

[14]- المرجع نفسه، ص: 42.

[15]- المرجع نفسه، ص: 42.

[16]- طه وادي: الأسلوبية.. ذاك المنهج الجديد، كلية الآداب، جامعة القاهرة، يناير 1990، ص: 22.

[17]- مجلة الثقافة: مرجع سابق، ص: 42.

[18]- المقري: أزهار الرياض، 1: 23.

[19]- المصدر نفسه: 1: 27.

[20]- المصدر نفسه: 1: 27.

[21]- المصدر نفسه: 1: 29.

[22]- المصدر نفسه: 1: 40.

[23]- المصدر نفسه، 1: 15 - 18.